من أساليب المفسرين في التعبير عن المعنى القرآني بالدلالة السياقية

Some methods of interpreters in expressing the Quranic meaning with contextual significance

أحمد عبد الفتاح نعيم مشاري

قسم علوم القرآن والتربية الإسلامية/ كلية التربية للعلوم الإنسانية/ جامعة الانبار - العراق -

Ahmed Abdel Fattah Naim Meshary

Department of Quran Sciences and Islamic Education/

College of Education for Human Sciences/ Anbar University - Iraq

ahm20h4016@uoanbar.edu.iq

ياسر إحسان رشيد

الأستاذ الدكتور بقسم علوم القرآن والتربية الإسلامية

كلية التربية للعلوم الإنسانية/ جامعة الانبار - العراق -

Yasser Ehsan Rashid

Department of Quran Sciences and Islamic Education

College of Education for Human Sciences

Anbar University - Iraq

yasir.rashid@uoanbar.edu.iq

الملخص باللغة العربية

يسلط هذا البحث الضوء على أسلوب من أساليب المفسرين التي عبَّروا به عن المعنى القرآني وهو أسلوب التعبير بالدلالة السياقية كما ويبين ثلاثة أساليب من تلك الدلالة عند المفسرين تأصيلاً وتمثيلاً.

فقد اعتمد المفسرون التعبير بالدلالة السياقية على اختلاف مناهجهم وتعدد اتجاهاتهم؛ لكشف المحمول الدلالي في اللفظ القرآني على ما يقتضيه السياق اللغوي والخارجي من دلالات قائمة خارج اطار الدلالة الوضعية للكلمة القرآنية.

وجاء تعبير المفسرين بأسلوب الدلالة السياقية من أنَّ بيان المعنى لا يقف على الكلمة نفسها سواء على مستوى البنية أو الصوت وإن كانت تلزم من يفسرها بذلك.

❊ ❊ ❊

الملخص باللغة الانكليزية

This paper sheds light on one of the methods of commentators in which they expressed the Qur'anic meaning, which is the method of expression in contextual connotation, and shows the image of that connotation in the interpreters.

Commentators have relied on the expression in contextual connotation of their different approaches and multiple directions to reveal the semantic portability of the Qur'anic pronunciation on the linguistic and external connotations required by the linguistic and external context that exist outside the positivist connotation of the Qur'anic word.

The expression of the interpreters in the style of contextual connotation came from the fact that the statement of meaning does not stand on the word itself, either at the level of structure or sound, although it obliges the interpreter to do so.

❊ ❊ ❊

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

وبعد؛ كان المفسرون على وعي بموقع الكلمة القرآنية التي تؤول الى عناصر السياق بما يتقدمها وما يأتي بعدها من قرائن داخلية وخارجية؛ لتحقق قيمتها المعنوية في الاستعمال، وتسمى هذه القيمة المعنوية بـ(الدلالة السياقية) التي ظهرت وبكثرة في تعبيرات المفسرين عن المعنى القرآني بل أنَّ أغلب تعبيراتهم جاءت بها مما يؤهلها أنَّ تكون أكبر اساليبهم البارزة في تفسير النص.

تُشّكِّل الدلالة السياقية بُعْداً جديداً من المعنى الاضافي في مظان التفاسير القرآنية غير ما عهدته المعجمات من دلالات وضعية للكلمة؛ لتستبعد دلالة اللفظ بنفسه وتنتقل الى دوائر خارجية عن ذاتية اللفظ، فهي دلالة تستنتج من النظم اللفظي للكلمة وموقعها، إذ تخضع الكلمة للعلاقات المعنوية والظروف الحالية المحيطة بها التي يتألف بموجبها المعنى السياقي لتلك الكلمة؛ لذلك وبمقتضى الدلالة السياقية (thecontextuai) في الدراسات الحديثة يكون السياق هو المنشئ المركزي لمعنى هذه الدلالة بشقيه اللغوي والمقامي على اختلافات السياقات لتقترب من نظرية النظم التي نظَّر إليها الجرجاني معتمداً فيها على السياق؛ لذلك كان من الضروري في عملية استقبال المعنى القرآني الرجوع الى قراءة استقرار الكلمة من موقع النص أو السورة وما تلتزم به دلالة النص القرآني من عوامل خارجة (مقامية)؛ لذلك جاء هذا البحث ليلبي الحاجة الى استجلاء الدلالة السياقية عند المفسرين وبيان بعضاً من صورها.

أهمية الموضوع:

إنَّ عملية التعبير عن المعنى هي عملية عقلية منطقية يصل من خلالها المفسر الى ترجمة الصورة الذهنية التي ترسم إزاء الألفاظ وأداته في هذه الترجمة هي أساليب التعبير، وتتضح أهمية هذه الاساليب من حيث أنَّها تحمل مستويات المعنى الى المتلقي (القارئ) وفق ما أنتجها العقل التفسيري، وبذلك تتضح رؤية الترابط والتداخل الوثيقين بين المعنى وأداة التعبير عنه على مختلف الاصعدة الدلالية.

هذا وقد قسمتُ البحث الى مبحثين ضمنتها مطالب حسب ما تقتضيه المادة العلمية.

ومن الله التوفيق ...

* * *

المبحث الاول
الدلالة السياقية عند المفسرين

الرؤية والمنهج:

تتفق كلمة الدلاليين على أنَّ الدلالة السياقية توضح الكثير من عمليات المصاحبة لأداء اللغة في وظيفتها الابلاغية والتواصلية لدى كل من منتج الكلام والمتلقي فهي ركن اساسي في فهم النص ومقاصده، بهذا المفهوم تتعدى الدلالة السياقية ما هو معروف من حيث تتابع الأصوات والألفاظ لتشمل الجو البيئي والنفسي المحيط بالكلمة فهي دعامة رئيسية في تحليل النص، ففي علم الدلالة يبدو السياق متشابكاً شديد الاهمية فالدلالات تنشأ كما يقول علماء الدلالة بطريقة سياقية تتحكم فيها القرائن الحالية التي تصحب عملية الكلام الى جانب القرائن الخاصة بنظام اللغة التي يدركها المتلقي عبر معرفته بذلك النظام[١].

مما سبق نلحظ أنَّ الدلاليين يقررون أنَّ انتاج المعنى لا يشمل الكلمات والجمل فحسب بل يشمل القصيدة كلها وما يحيط بالكلمة من ظروف وملابسات وهذا ما يُعرف عند المفسرين بإنتاج الدلالة من خلال دراسة مقاصد السورة وما تكتسبه المفردة من معانٍ في ضوء مقاصد السورة الكلية.

جاء تعبير المفسرين بأسلوب الدلالة السياقية من أنَّ بيان المعنى لا يقف على الكلمة نفسها سواء على مستوى البنية أو الصوت وإن كانت تلزم من يفسرها بذلك بل قد يُشكل غموضا «لا ينكشف الا من خلال تسييق الوحدة اللغوية أي: وضعها في سياقات مختلفة»[٢] كما لا يشكل تعارضاً بينها وبين بنيتها ما دام المعنى السياقي هو معنى إضافي وبذلك تؤدي دورها في الاستعمال في كل مرة بإطار دلالي يحدد معناها تحديداً مرتبط بمكانها متغير بتغير السياقات.

وبمعنى آخر يعني هذا الاسلوب التفسيري: تنزيل المفسرين معنى موجود (سياقياً) منزلة معنى آخر (لغوي)، للفظ معين، يتغير بتغير كل سياق، وقد قرر هذا الاصل ابن جني في مقولته: « إنَّ العراب كما تُعنى بألفاظها فتصلحها، فإنَّ المعاني أقوى عندها وأكرم عليها وأفخم قدراً في نفوسها»[٣]، وكذلك الطبري حينما قال إنَّ «تأويل الكلام على معناه دون البيان عن تأويل عين الكلمة بعينها فإنَّ أهل التأويل ربما فعلوا ذلك لعللٍ كثيرة تدعوهم إليه»[٤]، فالألفاظ كما يقول الدكتور جون لاينز شبكة معقدة من علاقات المعنى أي: تشبه نسيج العنكبوت

(١) ينظر: الخطاب القرآني: ٢٦، وينظر: firthpapers in linguistics p 86.

(٢) علم الدلالة، د. احمد مختار: ٦٨.

(٣) الخصائص: ١/ ٢١٥.

(٤) جامع البيان: ١/ ٤٤٢.

الواسع المتعدد كل خيطٍ فيه يمثل احدى هذه العلاقات الدلالية في حين تمثل كل عقدة فيه وحدة معجمية مختلفة[١].

ويؤكد الزركشي الى أنَّ النظر في الالفاظ ودلالتها يكون بحسب السياق لذلك عدَّ الراغب ممن أعتنى في كتابه المفردات بذكر قيدٍ زائدٍ على أهل اللغة في تفسير مدلول اللفظ اقتبسه من السياق[٢]، ولعل أبرز آثار هذا الاسلوب هو ربط الالفاظ وعلاقاتها فيما بينها في بناء النص القرآني دلالياً، فلا يمكن الاعتماد في فهم المعنى من منطوق الكلام دونما يضاف اليه الافتراض الاجتهادي الصحيح المحاط بالظواهر الدلالية المكونة له ، وبالتالي يكون معنى منطقي.

وهذه المعاني المنطقية التي انتجتها الدلالة السياقية في التعبير عن معنى ما هي استنتاجات ترتبط بالمعاني العقلية المنطقية كدلالة التضمن، ومفهوم المخالفة عند الاصوليين فالعنصر المعجمي الموجود في الالفاظ القرآنية قد لا يؤدي المعنى الكامل للنص[٣].

ومما يجب التنبه إليه أنَّ التعبير بالدلالة السياقية لا يعني الخروج عن اللفظ كلياً واقصاء معناه في الوضع بإيجاد معنى مبنيٍّ على غير ما تقتضيه اللغة، وإنَّما كان من الضروري في العملية التفسيرية قيام علاقة دلالية بين المعنى اللغوي والدلالة القرآنية على أنَّ الاولى لا تعدو أن تكون وسيلة الى الثانية، وبالتالي لا يُعَدُّ من التناقض في شيءٍ كما يقول الدكتور فتحي عامر أن تدل كلمات الاسلوب على معانيها في وضع الواضع لها، ثمَّ تدل على معانٍ اخرى تُفهم من سياق الكلام، ومن ايحاءات بعض الكلمات في النسق ومن مجاورة كلمة معينة لأخرى[٤].

فالدلالة السياقية هي معنى يرتبط بقاعدة أو قانون يتمثل بمصاحبة الكلمة المفسرة بما لاصقها من ألفاظ ومن ثَمَّ تفاعل المفردات أو المقطع القرآني بعضه مع بعض، وبالتالي أستطيع أن أقول إنَّها دلالة مُحكَمَة في التعبير عن صورة المعنى وإن كان الاجتهاد موجوداً في مجمل ماهيتها، ولعل أبرز قواعدها اشتراط تتابع الالفاظ في عملية انتاج معناها، فالمفسر وإن عبَّر بدلالة السياق مجتهداً في ايضاح المعنى فاجتهاده محاط بدلالة لا أقول في ذاتية الكلمة وانَّما في اطار معناها الخارجي.

فإذا كانت الكلمات في أية لغة من اللغات تحمل وجوها من تعدد الدلالة عند تفسيرها على حسب استعداد المتلقي وثقافته وامكانية تصوره لمعاني الكلمات فإنَّ ذلك أوفر إذ كانت تلك الكلمات تنتمي الى أهدى بيانٍ وأشرف كتابٍ وهو القرآن الكريم، فالمفسرون على توالي العصور يستلهمون المعاني من كتاب الله ويستنبطون

(١) ينظر: اللغة والمعنى والسياق ٨٣.
(٢) ينظر: البرهان في علوم القرآن ٢/ ١٧٢.
(٣) ينظر: تحليل الخطاب: ٣٥ و ٣٦.
(٤) ينظر: المعاني الثانية ٦٤، وينظر: دراسة المعنى ٣٣.

اللطائف البيانية التي تتجلى فيها عظمة الخالق وحكمة ابداعه وهذه المعاني تتسع وتتسع كلما اجتهد في بيانها المفسر فتتعدد وجوهها على أن لا تخرج هذه الوجوه عمَّا تسمح به الألفاظ من دلالات وهي تتحرك ضمن المساحة الدلالية في تصور معنى اللفظ(١).

جاء تعبير المفسرين بأسلوب الدلالة السياقية من أنَّ بيان المعنى لا يقف على الكلمة نفسها سواء على مستوى البنية أو الصوت وإن كانت تلزم من يفسرها بذلك بل قد يُشكل غموضا «لا ينكشف الا من خلال تسييق الوحدة اللغوية أي: وضعها في سياقات مختلفة»(٢) كما لا يشكل تعارضاً بينها وبين بنيتها ما دام المعنى السياقي هو معنى إضافي وبذلك تؤدي دورها في الاستعمال في كل مرة بإطار دلالي يحدد معناها تحديداً مرتبط بمكانها متغير بتغير السياقات.

مما سبق يَتَبينُ أنَّ المعنى في الدلالة السياقية ذو حركة دلالية يتعدد بتعدد التوظيف الذي تمر به الكلمة فمعناها يتغير من علم لآخر، فمن حيث العلوم على سبيل التمثيل كلمة (جذر) تختلف من حيث معناها في علم الزراعة عن معناها في الرياضيات أو اللغة(٣)، وكلمة (سلام) في سياقات النصوص القرآنية تأتي بمعنى التحية كما في قوله تعال: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ (٤) وجاءت بمعنى الترك كما في قوله تعالى﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾(٥) وتأتي بمعنى القول الحسن كما في قوله تعالى: ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾(٦).

* * *

(١) ينظر: التأويل الدلالي: ٤٦٤. وينظر: المشترك اللفظي في الحقل القرآني: ٣٣.
(٢) علم الدلالة، د. احمد مختار: ٦٨.
(٣) ينظر: علم اللغة بين التراث والمعاصرة: ٢٣٨.
(٤) سورة هود : الآية (٦٩).
(٥) سورة القصص: الآية (٥٥).
(٦) سورة مريم : الآية (٦٢).

المبحث الثاني
أساليب الدلالة السياقية
عند المفسرين

توطئة:

تتعدد أساليب الدلالة السياقية عند المفسرين حينما يعبروا عن المعنى القرآني، وبعد تأملٍ دقيق لهذه للدلالة السياقية عند المفسرين وجدتُ أنَّها تستمد من عوامل لغوية أو عقلية منطقية، فالمعنى مبنيٌّ فيها على سبل دلالية، وقد وقفتُ على ثلاثة أساليب منها، لذا سأجل لكل اسلوب مطلب خاص وهي كتالي:

المطلب الاول: تضمين المعنى اللغوي معنى جديداً مناسباً للسياق

من الظواهر الدلالية البارزة في تعبير المفسرين بالدلالة السياقية هي: تضمين المعنى اللغوي للكلمة القرآنية معنى سياقياً فضلاً عما حققته الكلمة من معنى لغوي، يكون بين المعنيين مناسبة، وكان مقتضى هذا التضمين اكتساب معنى جديد للكلمة القرآنية؛ ليتناسب حقلها الدلالي مع كلمات سياقها الذي نشأت فيه، وهذا التضمين يختلف عمَّا بحثه اللغويون والفارق بينهما أنَّ التضمين عند المفسرين يكون بين معنيين أي: بين معنى ومعنى، أما عند اللغويين فالتضمين يكون بين معنى ولفظ.

وتعليل مجيء هذا التضمين يتمثل في الاعتبار المعنوي داخل سياق معين؛ ليقرب المعنى من التوضيح والبيان على أنَّ هذا التضمين قائم على علاقة بين المعنى الاول (الوضعي) والمعنى الثاني؛ لذلك فالمغايرة ستكون من حيث الوضع، فالاشتراط يحقق تناسباً يؤدي الى دقة المعنى السياقي ولهذا التضمين المعنوي صور متنوعة يمكن بيانها على النحو الاتي:

تتخذ الدلالة السياقية في هذه الصورة معنى يُفَسِّرُ اللفظ القرآني عن طريق تضمين المعنى اللغوي يوافق السياق من جهة ويرتبط بالمعنى اللغوي من جهة أخرى؛ لوجود علاقة بين أصل المعنى والمثال الذي عبَّر به المفسر عن المعنى القرآني.

من ذلك قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[1] يأتي النبأ في اللغة بمعنى الإتيان من مكانٍ الى مكانٍ يقال: سيلٌ نابئٌ أي: أتى من بلدٍ الى بلدٍ ومن هذا القياس يأتي النبأ بمعنى الخبر؛ لأنه الخبر يأتي من مكانٍ الى مكانٍ، والمنبئُ هو المخبرُ[2].

هذا المعنى هو ما أقرته المعجمات العربية غير أنَّ الراغب يذهب الى أن النبأ هو «خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غَلَبَة ظنّ، ولا يقال للخبر في الأصل نَبَأٌ حتى يتضمّن هذه الأشياء

(١) سورة النبأ: من الآية (١ ـ ٢).
(٢) ينظر: مقاييس اللغة: ٥/ ٣٨٥.

الثّلاثة، وحقّ الخبر الذي يقال فيه نَبَأٌ أن يتعرّى عن الكذب، كالتّواتر، وخبر الله تعالى، وخبر النبيّ عليه الصلاة والسلام، ولتضمُّن النَّبَإِ معنى الخبر يقال: أَنْبَأْتُهُ بكذا كقولك: أخبرته بكذا، ولتضمّنه معنى العلم قيل: أَنْبَأْتُهُ كذا، كقولك: أعلمته كذا"[١]، وما يؤيد ما ذهب إليه الراغب هنا من انَّ النبأ هو الخبر ذو الفائدة عظيمة وصفُ النبأ بالعظيم كما في الآية هنا لبيان أهميته وتباينه عن الخبر المطلق.

وإذا جئنا الى تعبير المفسرين عن معنى (النبأ) في قوله تعالى: (عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ) سنجد أن تعبيرهم مرتبط ارتباطاً عن طريق التضمين بين المعنى اللغوي وما عبَّروا به من معانٍ متعددة في تفسير النبأ، فبناءً على معنى النبأ لغوياً وهو الخبر العظيم ذي الشأن جاء المعنى السياقي عند المفسرين يمثل معنى فيه عِظَمٌ وتهويل فقد قيل في معنى قوله تعالى: (عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ) هو البعث[٢]، وروي عن أنَّه القرآن الكريم[٣]، وإذا دققنا في معاني البعث أو القرآن الكريم فسنرى أنَّهما يحملان معنى الخبر العظيم ذو الشأن لذلك صح أن يمثل بتلك المعاني السياقية عن المعنى اللغوي.

فالخبر العظيم يُنبئُ عن توحيد الله تعالى وصفاته وتصديق رسوله، والخبر عن البعث والنشور[٤]، ولا تخصيص لمعنى النبأ هنا على التعيين ؛ لأن في النبأ تعريفُ الجنس فيشمل كل نبأ عظيم أخبرهم به النبي (صلى الله عليه وسلم) كما يقول الشيخ ابن عاشور[٥] فالمعنى على أصل اطلاقه وهو الخبر العظيم.

ومن التضمين قوله تعالى: ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾[٦]فقد ضمَّنَّ المفسرون معنى (الرجز) عبادة الأصنام والاوثان، وبهذا المعنى يتحقق لكلمة الرجز معناها السياقي مما يغني الدلالة القرآنية بمزيد من المعاني الإضافية، وهذا المعنى السياقي مغاير لمعنى الرجز في الوضع اللغوي، فالأصل في كلمة الرجز انَّها تطلق على العذاب[٧] غير أنَّ السياق سمح بأن يعبر عن هذا المعنى الضمني.

ومناسبة التضمين بين العذاب والاصنام جاء من العلاقة بين السبب ومسببه فإنَّ العذاب جاء بسبب عبادة الأصنام فهي عبادة تؤدي الى العذاب قطعاً؛ لذلك صح تضمين العذاب لمعنى الاصنام، فالمعنى يكون: داوم أيها الرسول الكريم على ما أنت عليه من هجر عبادة الأوثان والأصنام ...[٨].

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[٩] عبَّر المفسرون

(١) المفردات: ٧٩١ - ٧٩٢.
(٢) ينظر: جامع البيان ٣٠/ ٢ ، وينظر: معالم التنزيل: ٤/ ٤٣٦.
(٣) ينظر: تفسير مقاتل ٢٢٤، وينظر: تفسير مجاهد ٦٩٤.
(٤) ينظر: التفسير البسيط ٢٣/ ١١٢.
(٥) ينظر: التحرير والتنوير ٣٠/ ١٠.
(٦) سورة المدثر: الآية (٥).
(٧) ينظر: التفسير الوسيط: ١٥/ ١٧٥.
(٨) ينظر: المصدر نفسه: ١٥/ ١٧٥.
(٩) سورة آل عمران: الآية (١٠٧).

عن معنى (رحمة الله) بـ(الجنَّة) على سبيل التضمين؛ وذلك لأنَّ الجنَّة ثواب مخلد كما يقول الزمخشري[١] فصح التعبير عن معنى الرحمة بالجنَّة، والسياق اللغوي يسعف المعنى هنا بأن يكون قرينة كما قال تعالى بعدها: (هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) وبالتالي يكون المعنى: وأما الذين ابيضت وجوههم بسبب ايمانهم وأعمالهم الصالحة ففي جنَّة الله تعالى من باب التعبير عن الحال بالمحل أي: اطلاق الحال وارادة المحل، فتكون الظرفية حقيقية هنا، وبهذا أخذ اللفظ شكلاً أخر في تصور المعنى.

وفي تعبير المفسرين عن معنى الرحمة بالجنَّة اشعارٌ بأنَّ دخولها انَّما يكون بمحض فضل الله ورحمته.[٢]

المطلب الثاني: تفسير اللفظ بأثره اللاحق

كثيراً ما نجد معجمات اللغة العربية تشرح المعنى المعجمي من خلال التمثيل للمعنى بما يصح من تمثيلات له في الوجود الخارجي؛ لإيضاح صورة المعنى وشمول الفهم له، ويكون لهذه التمثيلات أثر بارز من خلاله يمكن إلحاق معنى ثانٍ قياساً على الاول باعتبار اتحاد الاثر فيهما؛ لذلك اذا رجعنا الى تعبيرات المفسرين عن المعنى سنجد أنَّ منها وإن كان مُعَبَّراً عنه بالدلالة السياقية فإنَّهُ راجعٌ الى أثر المعنى المعجمي.

من ذلك تفسير كلمة (صِبْغَةَ) في قوله تعالى: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾[٣] فهي في الوضع اللغوي ترجع الى المادة اللغوية (صبغ) التي تعني لغةً تلوين الشيء بلونٍ، وهذا المعنى هو الأصل الوحيد للمادة[٤].

أما المفسرون فقد عبَّروا من منطلق الدلالة السياقية عن معنى الصبغة بـ(دين الله) ويريدون به الايمان بالله (سبحانه تعالى) على أكمل وجهٍ، وقد استندوا في هذا المعنى على السياق اللغوي وهو قوله تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾[٥].

وقيل معنى الصبغة الفطرة[٦] ولا تعارض بين المعنيين فوجه الصبغة الى الفطرة كما يقول الطبري معناه: نتبع فطرة الله سبحانه وتعالى التي خلق عليها خلقه عليها كما في من قوله تعالى: ﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[٧]، وهي الإيمان به فالفطرة محمولة على معنى الصبغة.

(١) ينظر: الكشاف: ١/ ٣٩٩.
(٢) ينظر: التفسير الوسيط: ٢/ ٢٠٩.
(٣) سورة البقرة: الآية (١٣٨).
(٤) ينظر: مقاييس اللغة: ٣/٣٣١.
(٥) سورة البقرة: الآية (١٣٦).
(٦) ينظر: جامع البيان: ٣/ ١١٨ - ١١٩.
(٧) سورة الانعام : الآية (١٤).

وإذا تأملنا ما قاله المفسرون في تفسير (الصبغة) وما تعنيه هذه الكلمة في الوضع اللغوي وجدنا أنَّ المعنى السياقي الذي عبَّر به المفسرون يلحق المعنى اللغوي باعتباره أثره، وهذا الالحاق جاء من علاقة المناسبة بينهما من حيث أنَّ كليهما يرجعان الى أثر واحد، فإنَّ لون الاصباغ يظهر على اللوحة أو ما يُصبغ من الاشياء المادية مثلما يظهر الايمان في سلوك المؤمن من الاقوال والافعال فالعلاقة بين المعنيين هي ظهور شيءٍ ما.

فالدلالة السياقية أضافت معنى جديداً من خلال ما عبَّر به المفسرون عن (صبغة الله) بدين الله تعالى، والصبغة كجِلسة وتعني الحالة التي يقع عليها الصبغ، عُبِّر بها عن الايمان؛ لظهور أثره عليهم كظهور أثر الصبغ على المصبوغ[١].

المطلب الثالث: توسيع المعنى:

تتسع الكلمة القرآنية لتفسيرات دلالية متعددة شريطة أن يستوعبها السياق القرآني؛ لذلك أحدثت تنوعاً في التعبير عن معناها لدى المفسرين.

إنَّ العربية تتميز بمساحة واسعة في التعبير عن المعنى فلا يمكن حصر التعبير عن المعنى بعبارة محددة أو بطريقة واحدة، بل يمكن أن يُعَبَّرُ عنه بعبارات عدَّة وطرائق مختلفة، وتلك العبارات لا تؤدي معنى متماثلاً على وجه من التطابق التام وإنَّما لكل عبارة معنى يختلف عن الآخر شيئاً من الاختلاف قلَّ أو كَثُر وإن كان يجمع بينهما اطار عام[٢] وكثيراً ما يصب هذا الاختلاف في تنوع العبارة، وزيادة المعنى لا تضادِّه.

ويرجع هذا التنوع الى الاضافات الدلالية التي وسَّعت من تصور المفسر لمعنى الكلمة القرآنية أساساً من استيعاب السياق لها؛ لذلك كانت كثير من المادة التفسيرية المعبَّرة بها عن التصورات إزاء الالفاظ تحتوي أقولاً متعددة في تفسير اللفظ الواحد، وبالتالي يأتي هذا التوسع من صحة احتمال الكلمة القرآنية وجوهاً معنوية تتلاءم مع ما جاورها من كلمات؛ وبسببٍ مما سبق سيقرأ كل مفسرٍ من وجهته معنى يجدهُ الأقرب الى بيان الدلالة المرجوة والمقصودة من مجيء النص القرآني.

يقول الدكتور مصطفى ناصف: «لا يمكن أن نتجاهل فكرة التفسير الملائم أو النسق الذي تعيش فيه اجتهادات المفسرين»[٣]

من تلك الاجتهادات المعنوية التي وسعت الدلالة تعدد تعبير المفسرين عن معنى (قَدَمَ صِدْقٍ) في قوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ

(١) ينظر: جامع البيان: ٣ / ١١٨، وينظر: صفوة البيان: ٣٣.

(٢) ينظر: الجملة العربية والمعنى: ٢٧٠.

(٣) اللغة والتفسير والتواصل: ٥٤

مُّبِينٌ ﴾[١] يرى الماوردي أنَّ التعبير عن معنى (قَدَمَ صِدْقٍ) يتسع لستة معانٍ فقد قيل فيها: أنَّ لهم ثواباً حسناً بسببِ ما قدموه من صالح الأعمال في الحياة الدنيا، وقيل: إنَّ لهم شفيعاً صادقاً وهو النبي ﷺ، وقيل: سبقت لهم السعادة في اللوح المحفوظ، وقيل: لهم سلف صدق، وقيل: لهم السابقة بالإخلاص والطاعة، وقيل: موافقة الطاعة صدق الجزاء، فيكون معنى القدم عبارة عن التقدم، ويكون معنى الصدق عبارة عن الحق[٢].

ويمكن أن تجمع تلك المعاني بـ(السابقة من الفضل، والمنزلة الرفيعة)[٣]، وإذا دققنا النظر وراء هذه التوسعة الدلالية ألفينا أنَّها جاءت من المجاز في لفظ (قدم) الذي أعطى مساحة من القراءات المتنوعة في تصوُّر المعنى لدى المفسرين وعليه تعددت التعبيرات ازاء لفظ واحد.

ولعل الطبري كان أول من لاحظ سبب هذه السعة الدلالية حيث بَيَّن أنَّ هذا المعنى محكيٌ عن العرب على سبيل المجاز من قولهم: "هؤلاء أهل القدم في الإسلام؛ أي هؤلاء الذين قدموا فيه خيراً، فكان لهم فيه تقديم، كما يقال: له عندي قدم صدق وقدم سوء، وذلك ما قدم إليه من خير أو شر، ومنه قول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

لنا القدم الأولى إليك وخلفنا
لأولنا في طاعة الله تابع"[٤].

وقد علل الزمخشري تسمية القدم بالسابقة من الفضل والخير؛ بأنَّ السعي والسبق لمَّا كان لا يتحصل إلا بالقدم سُمِّيت المسعاة الجميلة والسابقة من الخير قدماً، مثلما سُمِّيت النعمة يداً؛ لكونها تُعطى باليد فقيل: فلانٌ قدمٌ بالخير[٥]، فالقدم اسمٌ يطلق على ما تقدم وسلف، وأصل القدم العضو المخصوص جاء اطلاقها على السبق؛ لأنها هي سببه وآلته فَسُمِّيَ المسَّبب باسم السبب من باب المجاز المرسل[٦].

وإضافة القدم الى الصدق من اضافة الموصوف الى الصفة كقولهم: مسجد الجامع للإيذان بأنَّهم ينالونها بصدق القول والعمل والنية، وأصل الصدق يكون في الاقوال وقد يستعمل في الافعال فيقال: فلان صدق في العمل إذا وفَّاهُ حقه[٧] فالمعنى الاجمالي للآية يكون: لهم سابقة ومنزلة رفيعة عند ربهم.

* * *

(١) سورة يونس: الآية (٢).
(٢) ينظر: النكت والعيون: ٢/ ٤٢١ - ٤٢٢.
(٣) ينظر: الكشاف: ٢/ ٣٢٨.
(٤) جامع البيان: ١٢/ ١١١.
(٥) ينظر: الكشاف: ٢/ ٣٢٨.
(٦) ينظر: التفسير الوسيط: ٧/ ١٦، وينظر: التحرير والتنوير: ١١/ ٨٥.
(٧) ينظر: المصدر نفسه: ٧/ ١٦.

الخاتمة والنتائج

١.جاء تعبير المفسرين بأسلوب الدلالة السياقية من أنَّ بيان المعنى لا يقف على الكلمة نفسها سواء على مستوى البنية أو الصوت وإن كانت تلزم من يفسرها بذلك بل قد يُشكل غموضا لا يزول الا بالرجوع الى سياق الكلام.

٢.إنَّ المعنى السياقي هو معنى إضافي وبذلك تؤدي دورها في الاستعمال في كل مرة بإطار دلالي يحدد معناها تحديداً مرتبط بمكانها متغير بتغير السياقات.

٣.كان المفسرون على وعي بموقع الكلمة القرآنية التي تؤول الى عناصر السياق بما يتقدمها وما يأتي بعدها من قرائن داخلية وخارجية؛ لتحقق قيمتها المعنوية في الاستعمال، وتسمى هذه القيمة المعنوية بـ(الدلالة السياقية) التي ظهرت وبكثرة في تعبيرات المفسرين عن المعنى القرآني بل أنَّ أغلب تعبيراتهم جاءت بها مما يؤهلها أنَّ تكون أكبر اساليبهم البارزة في تفسير النص.

٤.المعاني المنطقية التي انتجتها الدلالة السياقية في التعبير عن معنى هي استنتاجات ترتبط بالمعاني العقلية المنطقية كدلالة التضمن، ومفهوم المخالفة عند الاصوليين فالعنصر المعجمي الموجود في الالفاظ القرآنية قد لا يؤدي المعنى الكامل للنص؛ لذلك راعى المفسرون الدلالة السياقية في العملية التفسيرية.

٥. تتسع الكلمة القرآنية لتفسيرات دلالية متعددة شريطة أن يستوعبها السياق القرآني؛ لذلك أحدثت تنوعاً في التعبير عن معناها لدى المفسرين.

* * *

قائمة المصادر والمراجع

١.جامع البيان عن تفسير اي القرآن، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق الدكتور عبد المحسن التركي، الناشر: دار هجر للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، سنة النشر: ٢٠٠١ .

٢.الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، الناشر: دار الكتاب العربي بيروت الطبعة: الثالثة ، عدد الأجزاء:٤.

٣.معجم مقاييس اللغة، المؤلف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت ٣٩٥هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.، عدد الأجزاء: ٦.

٤.الخصائص، المؤلف: أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت ٣٩٢هـ)، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: الرابعة، عدد الأجزاء: ٣.

٥.تفسير الماوردي = النكت والعيون، المؤلف: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (ت ٤٥٠هـ)، المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، عدد الأجزاء: ٦.

٦.تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، المؤلف: الشيخ محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي ، الناشر: الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ، عدد الأجزاء: ٣٠.

٧.البرهان في علوم القرآن، المؤلف: أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة: الأولى، ١٩٥٧م، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، عدد الأجزاء:٤.

٨.التفسير البسيط المؤلف: علي بن أحمد الواحدي ت ٤٦٨ه ، الناشر: مكتبة العبيكان المملكة العربية السعودية، تحقيق، نخبة من العلماء، الطبعة الاولى.

٩.التفسير الوسيط للقرآن الكريم، المؤلف: الشيخ محمد سيد طنطاوي، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة: الأولى نشر على شكل اجزاء ما بين سنة ١٩٩٧ - ١٩٩٨م.

١٠.الخطاب القرآني دراسة في العلاقة بين النص والسياق، المؤلف: د. خلود العموش ، الناشر: عالم الكتب الحديث إربد / الأردن عمّان، سنة النشر ٢٠٠٨ م .

١١.علم الدلالة، المؤلف: أحمد مختار عمر. عدد الأجزاء: ١، الناشر: عالم الكتب.،

الطبعة الخامسة، سنة النشر: ١٩٩٨م.
١٢.اللغة والمعنى والسياق، المؤلف: جون لاينز، المترجم: د. عباس صادق الوهاب، مراجعة: د. يوئيل عزيز، دار النشر: دار الشؤون الثقافية العامة، مكان النشر: بغداد – العراق، سنة النشر: ١٩٨٧
١٣.التأويل الدلالي عند المعتزلة المؤلف: هيثم سرحان ، الناشر: دار الحوار للنشر والتوزيع، سنة النشر: ٢٠١١م.
١٤.الجملة العربية والمعنى، المؤلف: الدكتور فاضل صالح السامرائي، الناشر: دار ابن كثير للنشر والتوزيع بيروت، سنة النشر: ٢٠١٨م.
١٥.المعاني الثانية في الاسلوب القرآني، المؤلف: فتحي أحمد عامر، الناشر: منشأة المعارف مصر، سنة النشر، ١٩٩٨م.

* * *